المنتفخة الخدّين التي كانت تحملها إلى ردفٍ متعوِّد على حملها لكانت نفسَ الصبيّة الفكِهة المتمرِّدة التي كان «ماني» قد احتفظ لها بأرقّ عاطفة، وقد نمّ شعرها الفاتح اللون عن الفوضى عينها. وكان في الوسع اكتشاف فرحة غير مصطنعة في النظرة التي تبادلاها؛ وبقية أسف ولا ريب. وأما الغموض والتلبيس فما كان لهما قطّ من أثر. قالت: .

ـ هذا الثوب.

ـ أجل، لقد هجرت «أصحاب الملابس البيضاء».

ـ إلى الأبد؟.

ـ بل إلى أبعد.

تقدّم منها خطوة ولامس بيد مضطربة خدّي الطفلة، وكان عمرها يكاد يناهز عامين، فتركت الزائر المجهول يُلاطفها، بل أنعمت عليه بابتسامة قبل أن تتشبّث خجلةً بملابس أمّها.

قال «مالكوس»: .

ـ أهلاً بك هنا، فهذا البيت بيتك، وأنت تعرف ذلك.

ـ إذا كان هناك من بيت في الدنيا يمكن أن يكون بيتي فسيكون هذا. بيد أني لن أكون سوى عابر سبيل.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟.

هذا الأمر ما زلت أجهله. وبانتظار ما سيكون فهل تمنحني المأوى لهذه الليلة؟.

ـ هذه الليلة، والليلة القادمة، وكل ليالي حياتي.

ـ من أجل غدٍ أطلب إليك ذلك غداً.

لقد ودّ «مالكوس» لو يحتجّ، بيد أنه عرف لدى صديقه تلك النبرة البعيدة